دار الندوة في الجاهلية والإسلام

دراسة تاريخية حضارية

د. عدنان بن محمد الحارثي

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

الندوة من ندا، يندو ندواً، ومنها (ندوت)؛ أي: اجتمعت مع، ومنها النديّ، وهو الاجتماع في المجلس. ومنه جاء لفظ (الندوة)؛ أي: النادي بمعنى: المجلس والمشاورة والجماعة[١]. وأطلق الاسم على دار بعينها في مكة لاجتماع قريش فيها[٢]، وقيل: إن الاسم مشتق من المناداة (أي: المفاخرة)، ومنه جاء اسم (دار الندوة)؛ أي: للمفاخرة[٣].

إنشاء دار الندوة

أنشأ دار الندوة قصي بن كلاب بن مرة بن كعب[٤]، ولم يكن اسمه قصياً، بل زيداً، وسمي قصياً بعد ذلك؛ لأنه قُصّي عن قومه[٥]، حيث

(١) الزبيدي؛ محب الدين محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، ج١٠، ص٣٦٢.

(٢) المصدر السابق: ج١٠، ص ٣٦٢، الفاسي؛ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عبدالسلام التدمري، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص١٣٩.

(٣) الزبيدي، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٦٢.

(٤) عنه انظر: الطبري؛ محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٢، ص١٨١ - ١٨٥.

(٥) ابن الأثير؛ علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ج٢، ص١١. ويرى حسين مؤنس أن اسمه الحقيقي قصي، وأن زيداً اسم اختلقه الإخباريون، بل إنه يعيد وصف حياة قصي كلها بأسلوب يبتعد فيه عما رواه الإخباريون، وعلى الرغم من وجاهة ما يذكره فإنه لا يستند إلى أدلة تاريخية معتد بها. انظر: حسين مؤنس؛ تاريخ قريش (دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر)، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٩٢ - ٩٦.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والثلاثون

الدارة

عاش في بني عذرة على أطراف بلاد الشام بعيداً عن قومه. وسبب ذلك كما تذكر روايات الإخباريين أن أمه فاطمة بنت سعد بن سيل تزوجت ربيعة بن حرام من سادات بني عذرة بعد وفاة زوجها كلاب بن مرة والد قصي؛ فارتحلت مع زوجها ربيعة إلى بلاده، وأخذت معها قصياً لصغر سنه. وبعد ما شب قصي وكبر حدث خلافٌ بينه وبين رجل من بني عذرة؛ فأنّبه، وانتقص منه؛ لأنه غريب، وليس من قومه، فرجع قصي إلى أمه، وقد وجد في نفسه مما قاله الرجل، فسألها عن ذلك، فأخبرته بقومه، فعزم على اللحاق بهم، فألحت عليه أمه ألاّ يعجل، وينتظر حتى يخرج مع الحجاج المتجهين إلى مكة، خوفًا من غائلة الطريق إن سافر منفرداً[٦].

وفي مكة المكرمة تزوج قصي من حبى بنت حليل بن حبشية الخزاعي؛ فأنجبت له عدداً من الأولاد الذكور، وكثر مال قصي، وعظم شرفه، فلما توفي حليل الذي كان يلي أمر مكة المكرمة عمل قصي على انتزاع ولاية مكة والكعبة من خزاعة، معتبراً نفسه أولى منهم بها[٧].

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن حليل بن حبشية دفع بأمر مكة إلى قصي؛ لأنه أحب أن يجعل ولايتها في يد أبناء بنته حبى[٨]، في حين أن هناك رواية تذكر بأن قصيا اشترى ولاية مكة والبيت من وكيل حبى أبي غبشان بزق خمر وعود[٩].

(٦) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨١ - ١٨٢. النويري؛ شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الطبعة الأولى، القاهرة. ج١٦، ص٢٦. جواد علي؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، بغداد، ١٩٧٨م، ج٤، ص٤١.

(٧) ابن هشام؛ عبدالملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، ج١، ص١١٧ - ١١٨. الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٢.

(٨) ابن هشام، المصدر السابق، ج١، ص١١٨، ابن الأثير؛ الكامل، ج٢، ص ١٢.

(٩) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٢.

أبت خزاعة على قصي أن يلي أمر البيت؛ فاستعان بقومه قريش، وببني عذرة قوم أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام، إذ بعث إليه قصي يستنصره، فلبى دعوته، وآزره على خزاعة(١٠).

وتحارب الطرفان، فلما اشتد القتال، وكثر القتل والجراح فيهم، تداعوا للصلح على أن يحتكما إلى يعمر (وقيل: عمر) بن عوف بن كعب، فكان حكمه أن قصياً وقومه أولى بمكة والبيت، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة موضوع، فيشدخه تحت قدميه، وأن كل دم أصابته خزاعة وحلفاؤها من قريش وحلفائها ففيه الدية. وبذلك تحقق لقصي مبتغاه في ولاية مكة المكرمة والبيت الحرام(١١).

على إثر ذلك جمع قصي قومه من الشعاب والأودية والجبال، ومُلِّك عليهم، وحكم فيهم، وقسم مكة بينهم رباعًا، فبنوا المساكن(١٢).

وتذكر بعض روايات الإخباريين أن قومه هابوا قطع شجر الحرم؛ ليبنوا منازلهم، فبادر قصي فقطعها، فلما رأوا أنه لم يصبه أذى فعلوا مثلما فعل(١٣). وبنى قصي دار الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة(١٤)، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس الميلادي؛ أي: قبل ما يقارب مئة وخمسين عاماً من الهجرة النبوية الشريفة(١٥).

(١٠) المصدر السابق، ج٢، ص١٨٣.

(١١) المصدر السابق، ج٢، ص١٨٢ - ١٨٤، محمد جمال الدين سرور؛ قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ﷺ، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٤٢ - ٤٣.

(١٢) ابن الأثير؛ الكامل، ج٢، ص١٣، النويري؛ نهاية الأرب، ج١٦، ص٢٨ - ٢٩، أحمد السباعي؛ تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران)، الطبعة السادسة، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١، ص٢٥.

(١٣) ابن هشام؛ السيرة النبوية، ج١، ص١٢٥، ابن سعد؛ محمد بن سعد بن منيع القرشي الهاشمي، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص٧٠.

(١٤) الفاكهي؛ محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٣، ص٢٦٠.

(١٥) عواطف سلامة؛ قريش قبل الإسلام ودورها السياسي والاقتصادي والديني، الرياض، ص٣٨.

ودار الندوة هي أول دار بنيت بمكة المكرمة - على حد قول الإخباريين - ولم يكن قبلها بناء سوى الكعبة المعظمة[١٦]، وكان سكان مكة قبل ذلك يدخلونها نهاراً، ويخرجون منها ليلاً تعظيماً للبيت وشأنه[١٧]. وهناك روايات أخرى تذكر بأن سكانها كانوا يقطنون في مضارب من الشعر الأسود[١٨]. وينفي أحمد إبراهيم الشريف كل ذلك بقوله: "ليس من الممكن الموافقة على ما يقول به المؤرخون العرب، من أن مكة بقيت على بداوتها حتى اجتمع أمرها لقصي بن كلاب، فهذا أمر عسير التصور أن تبقى بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القدسية في حالة البادية مع ما يثبته المؤرخون من أن البيت بقي بعد إسماعيل في يد جرهم - أخوال بنيه - أجيالاً متعاقبة أقاموها حوله، ثم انتقال أمرها بعد ذلك لخزاعة، وهي قبيلة يمنية قدمت من بلاد عرفت الحضارة والاستقرار وشؤون الحكم، وهي حين وليت أمر مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام، وأنها اتصلت بتجارة العالم عن هذا الطريق، وعن طريق البحر الأحمر، كما يشير هؤلاء المؤرخون إلى احترام التبابعة لمكة، فيذكرون مثلاً أن التبع أسعد أبا كرب الحميري قدم مكة، ووضع الكسوة على البيت الحرام.

عسير أن يتصور بقاء بلد له هذه المكانة من غير أن يدنيه اتصاله بالعالم من مراتب الحضارة؛ لذلك كان من الحق أن نقول: إن مكة، وقد دعاها إبراهيم عليه السلام بلداً، ودعا الله أن يجعله آمناً مطمئناً، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالاً طويلة قبل قصي..."[١٩]، ومما يؤكد

(١٦) اليعقوبي؛ أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٠م، ج١، ص٢٣٩. الماوردي؛ محمد بن حبيب البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص١٦٣. السنجاري؛ علي بن تاج الدين بن تقي الدين، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق جميل بن عبدالله المصري وآخرين، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص٣٦٨.

(١٧) عواطف سلامة؛ قريش، ص٤١.

(١٨) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٥١.

(١٩) أحمد إبراهيم الشريف؛ مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٩٦.

هذا الرأي أن هناك نصوصاً تاريخية تذكر اتخاذ قبائل العرب القاطنين مكة المكرمة المنازل المبنية مساكن لهم. فعندما نزلت بها جرهم بنوا المنازل، وتوسعوا في ذلك(٢٠). ويذكر الطبري أن قصياً حين قاتل خزاعة "أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم، فلما رأت ذلك جلت عن مكة؛ فمنهم من وهب مسكنه، ومنهم من باع ومنه من أسكن"(٢١).

ويظهر أن مساكنهم كانت على سفوح الجبال المحيطة بالوادي، فكانوا ينزلون إليه نهاراً لزيارة الكعبة أو الطواف بها، أو للجلوس عند الكعبة لإدارة بعض شؤونهم(٢٢). وبالتالي فإن بناء قصي لدار الندوة وسكنى قومه معه، يقصد به البناء في بطاح مكة حول الكعبة؛ ولذلك عرفوا بقريش البطاح(٢٣). فَعُدُّوا بذلك أول من بنى مكة (البلدة) المحيطة بالكعبة المشرفة.

دار الندوة قبل الإسلام

اتخذ قصي بن كلاب دار الندوة مقراً لسكناه وإقامته(٢٤). وفي الوقت ذاته رسخ من خلالها سياسات وأساليب تدار من خلالها شؤون القبيلة ومكة المكرمة. وكانت معظم الشؤون العامة الداخلية والخارجية تناقش في هذه الدار(٢٥)، فعندما قرر صناديد قريش

(٢٠) الأزرقي؛ محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الثالثة، مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج١، ص٨٥.

(٢١) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٢.

(٢٢) عواطف سلامة؛ قريش، ص٦٩.

(٢٣) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٢، السنجاري، منائح الكرم، ج١، ص٣٦٥ – ٣٦٦. عواطف سلامة؛ قريش، ص٦٩.

(٢٤) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١٠٢، ٢٥٢، جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٧.

(٢٥) جواد علي، المرجع السابق، ج٤، ص٤٧، نبيه عاقل؛ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، الطبعة الثالثة، دمشق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٥م، ص٢٣٣ – ٢٣٤، السيد عبدالعزيز سالم؛ دراسات في تاريخ العرب (تاريخ العرب قبل الإسلام)، الإسكندرية، ج١، ص٣١٢.

مواجهة دعوة الإسلام التي أخذت تنتشر في المجتمع المكي عقدوا اجتماعاتهم، وقرروا فيها الكيد للإسلام بإلصاق التهم جزافاً بمبادئ الدين الجديد، وبشخص الرسول ﷺ، ثم اتجهوا بعد ذلك للإيذاء الجسدي والمساوامات والمقاطعة؛ بهدف منع صاحب الدعوة وأتباعه من نشر مبادئ الإسلام العظيمة(٢٦). وكانت هذه الاجتماعات تتم في دار الندوة كما تشير بذلك المصادر التاريخية(٢٧). وعندما وجدوا أن هذه الأساليب لا تجدي نفعاً، ولا تحقق غاياتهم اجتمعوا في دار الندوة، وقرروا قتل الرسول ﷺ؛ فكان ذلك سبباً لهجرته الشريفة ﷺ إلى المدينة المنورة(٢٨).

وكانت دار الندوة المكان الذي تعقد فيه ألوية الحروب التي خاضتها قريش. وقد دخلت قريش في حروب عدة في الجاهلية ضد بعض القبائل العربية، وحاربت دولة الإسلام الناشئة في المدينة المنورة. وعلى الرغم من أن المصادر لا تذكر صراحة انعقاد ألوية الحرب في دار الندوة إلا في غزوتي أحد(٢٩) والخندق(٣٠)، فإن من المؤكد أن الحروب التي سبقت ذلك، ووقعت بعد إنشاء دار الندوة، كان الاستعداد لها والتشاور بشأنها يتم فيها؛ لأن المصادر التي تحدثت عن تنظيمات هذه الدار بصفة عامة ذكرت أن من ضمن

(٢٦) للمزيد انظر: صفي الرحمن المباكفوري؛ الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٨٣ - ٩١، ٩٨ - ٩٩.

(٢٧) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣١٢، الحربي؛ إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة العربية، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٤٧٥.

(٢٨) ابن هشام؛ السيرة، ج٢، ص٤٨٠، ابن فهد؛ إتحاف، ج١، ص٢٥٨.

(٢٩) هذه الغزوة قامت بها قريش انتقاماً لهزيمتها في بدر، وقد كانت في سنة (٣هـ/ ٦٢٤م)، للمزيد عنها انظر: المباركفوري؛ الرحيق المختوم، ص٢٤٨ - ٢٨٥.

(٣٠) ابن فهد؛ إتحاف، ج١، ص٤٤٤. الخندق، وتسمى الأحزاب أيضاً لتحالف طوائف من المشركين في قيادتهم قريش لغزو المدينة سنة (٥هـ/٦٢٦م). للمزيد انظر: المباركفوري؛ الرحيق المختوم، ص٣٠١ - ٣١٢.

ذلك الإعداد للحروب التي تخوضها قريش[٣١]. ومن أبرز هذه الحروب: (ذات نكيف)[٣٢]، (والفجار)[٣٣]، (وبدر الكبرى)[٣٤].

وجعل القرشيون من دار الندوة مكاناً لعقد بعض أحلافهم، ففيها حالف عبدالمطلب خزاعة[٣٥]، وفيها حضر الرسول ﷺ عقد حلف الفضول[٣٦]. ومن دار الندوة كانت تنطلق قوافل قريش التجارية وإليها تعود[٣٧]؛ مما يرجح أنها كانت مكاناً لعقد الصفقات التجارية.

(٣١) ابن حبيب؛ محمد بن حبيب البغدادي، كتاب المنمق في أخبار قريش، تصحيح وتعليق خورشيد أحمد فارق، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٢. البلاذري؛ أحمد بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميدالله، القاهرة، ١٩٥٩م، ج١، ص٥٢. ابن سعد؛ الطبقات، ج١، ص٧٠. الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص١٠٩، الفاكهي؛ أخبار مكة ج٣، ص٣١٠، جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٧.

(٣٢) ذات نكيف حروب بين قريش وبني ليث بن بكر بن عبدمناة، ومن معهم من بكر. واختلفت المصادر في ذكر أسبابها. عبدالله بن حسين الشريف؛ الأحابيش وموقفهم من الصراع بين قريش والمسلمين، حوليات مركز البحوث التاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الحولية الأولى، الرسالة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٦ – ٣٧.

(٣٣) هي مجموعة حروب تمثل معارك قصيرة ومناوشات، وسبب اشتهارها وقوعها في الأشهر الحرم. جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٨٥.

(٣٤) هي الغزوة المعروفة، وقد حدثت في السنة (٢هـ/٦٢٣م)، للمزيد انظر: المباركفوري؛ الرحيق المختوم، ص٢٠٤ – ٢٣٣.

(٣٥) هذا الحلف عقده عبدالمطلب مع بعض خزاعة. للمزيد انظر: ابن سعد؛ الطبقات، ج١، ص٨٥، ابن حبيب؛ المنمق، ص٨٦ – ٨٨. عبدالله الشريف؛ الأحابيش، ص٢٢.

(٣٦) غاية هذا الحلف إنصاف المظلومين من أهل مكة أو من غيرها من الضعفاء ممن لا يجدون من يدافع عنهم، وقد حضره الرسول ﷺ وإن اختلف في مكان انعقاده، أهو في دار الندوة، أو في دار عبدالله بن جدعان، وهناك روايات تذكر بأن المتحالفين في قريش اجتمعوا في دار الندوة، ثم توجهوا إلى دار عبدالله بن جدعان، وهناك روايات لبعض الإخباريين تخلط بينه وبين حلف المطيبين، في حين أن من الثابت أن حلف المطيبين عقد لغرض آخر، وكان قبل عصر النبي ﷺ، كما يذكر جواد علي. انظر: ابن كثير؛ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٤٠١هـ، ج١، ص٤٩١، الهيثمي؛ علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٨، ص١٧٢. النويري؛ نهاية الأرب، ج١٦، ص٣٥. جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٦٠ – ٦٤، ٨٦ – ٩٠.

(٣٧) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج١، ص٤٣٠.

ولم تقتصر تنظيمات دار الندوة على الشؤون العامة الكبرى، والجوانب السياسية والاقتصادية، وإنما تجاوزت ذلك لتمارس فيها بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ففيها كان يعقد زواج القرشي والقرشية، ويعذر (يختن) فيها من بلغ من صبيانهم، وإذا حاضت الجارية جيء بها إلى دار الندوة، فيشق عليها درعها، وتعود إلى أهلها فيحجبونها(٣٨). وعندما دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة معتمراً سنة (٧هـ/٦٢٨م) اجتمع بعض سكان مكة المكرمة في دار الندوة للنظر إليه وإلى أصحابه، وهم يطوفون بالكعبة المشرفة(٣٩).

وكان القرشيون يلتزمون بتلك الوظائف التي كانت تقوم بها دار الندوة، ولا يحيدون عنها أبداً، وكانت عندهم أشبه بالدين المتبع. وقد حافظوا عليها تيمناً بأمر قصي، وتبركاً به كما تشير بذلك المصادر التاريخية(٤٠)؛ مما يوحي بأنها نظمت، ورسخت منذ عهده، والتزم بها من جاء من بعده دون تغيير أو تطوير. وهذا بخلاف سنن الحياة، وتطور المجتمعات التي عادة ما تشهد تقاليدها وأعرافها بعض التغير والتطوير تبعاً لتغير الأزمان والعصور. ويبدو أن أسس هذه التنظيمات قد وضعت على يد قصي، ثم أخذت تتطور بتغير الظروف والأحوال، فكانت أعرافاً متبعة، وتقاليد مرعية يتوارثونها جيلاً بعد جيل، شفاهة وليست كتابة، إذ لم تشر المصادر إلى تدوينها على الإطلاق.

ويرى أحمد إبراهيم الشريف أن تنظيم مختلف مظاهر الحياة ظهر في مكة المكرمة منذ زمن عمرو بن لحي زعيم خزاعة، وإن كان بصورة أولية(٤١)، وبالتالي فقد تكون جذور بعض وظائف دار الندوة تعود لتلك الفترة.

---

(٣٨) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص ٦٦، ج٢، ص١١٢ - ١١٣، ٢٥٣، الفاسي؛ شفاء الغرام، ج٢، ص١١٢ - ١١٣، النويري؛ نهاية الأرب، ج١٦، ص٢٩.

(٣٩) ابن سعد؛ الطبقات، ج١، ص٢٢٧.

(٤٠) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٣، ابن الأثير؛ الكامل، ج٢، ص ١٣.

(٤١) أحمد الشريف؛ مكة والمدينة، ص٩٩ - ١٠٠.

في ضوء ما سبق يتضح أن دار الندوة كانت منذ زمن قصي مركزاً لإدارة شؤون مكة، يجتمع فيها الملأ من زعماء قريش وأشرافها، وقد تعارفوا على ألاَّ يحضر اجتماعاتهم إلا من كان سنه فوق الأربعين، ويستثنى من ذلك بنو قصي وحلفاؤهم(٤٢)، أو من عرف من غيرهم بحسن الرأي ورجاحة العقل؛ فدخلها الحكم بن هشام (أبو جهل)، وهو ابن ثلاثين عاماً لجودة رأيه، وحسن تدبيره، كما دخلها حكيم بن حزام، وهو ابن خمسة عشر عاماً تبركاً به؛ لأنه ولد بالكعبة(٤٣).

ولم تكن القرارات التي يتخذها المجتمعون في هذه الدار ملزمة، وإن وافقوا عليها بالإجماع(٤٤)، وكان باستطاعة من شاء من القرشيين التراجع عنها، إذ لم يشارك أحد من بني عدي بن كعب في غزوة بدر الكبرى، بينما انسحب منها بنو زهرة وبعض بني المطلب وغيرهم من قبل أن تقع المعركة، وذلك رغم إجماع قريش على قتال المسلمين في بدر إظهاراً لمنعتهم وقوتهم(٤٥). كما أن نجاح تنفيذ القرارات يعتمد على قدرات المجتمعين، ومدى نفوذهم في المجتمع المكي، ومقدرتهم على الإقناع، أو اتخاذ إجراءات بحق المخالفين من مقاطعة أو مساومة وغير ذلك(٤٦).

ومن الواضح أن التنظيم المتبع في دار الندوة قبلي في جوهره، وأنه امتداد لمجلس القبيلة مع بعض التطوير الذي أحدثته قريش؛

(٤٢) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٣، جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٧ - ٤٨.

(٤٣) المزي؛ يوسف بن الزكي عبدالرحمن، تهذيب الكمال، تحقيق بشار معروف عواد، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج٧، ص١٨٦. جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص ٤٧. حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي القرشي، من أشراف قريش ووجهائها، اختلف في وفاته فقيل: (٥٤هـ/٦٧٣م) أو (٥٨هـ/ ٦٧٧م) أو (٦٠هـ/٦٧٩م)، للمزيد انظر: الفاسي؛ تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد وآخرون، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ج٤، ص٢٢١ - ٢٢٣.

(٤٤) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٨.

(٤٥) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٦.

(٤٦) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٨.

نتيجة للازدهار التجاري والحضاري اللذين شهدتهما مكة في ذلك العصر[٤٧]. ولم تكن في مكة حكومة مركزية تتبعها المؤسسات الإدارية بالمفهوم المتعارف عليه وإن كان بصورة بدائية، وكل ما في الأمر أنها تتألف من بطون لكل منها شيخ يرأسها، وهم وحدهم أصحاب الحل والعقد فيها[٤٨].

وكان يتولى الإشراف على دار الندوة قيّم من بني عبدالدار بن قصي، فكان يفتحها لقريش متى اقتضى الأمر، كما أنه يشق درع الفتاة، ويعيده عليها إذا ما حاضت[٤٩].

وتذكر النصوص التاريخية أن قصياً أوصى أن يكون أمر دار الندوة من بعده لابنه الأكبر عبدالدار، وأنه ولاه إياها ووظائف أخرى[٥٠]، لأنه كان ضعيفاً، فأراد قصي تقويته، ورفع شأنه أمام شقيقه عبدمناف الذي كثر ماله، وساد في حياة أبيه[٥١]. وقد حاول بنو عبدمناف بعد ذلك أن يستأثروا بالوظائف التي في يد بني عبدالدار، وتحالفوا مع بعض بطون قريش؛ فأنشأ بنو عبدالدار حلفاً مضاداً مع بطون قرشية أخرى، وانقسمت قريش فيما بينها، ثم تداعوا للصلح، واتفقوا على أن يعطوا بني عبدمناف الرفادة والسقاية، ويبقى اللواء والحجابة والندوة عند بني عبدالدار[٥٢]، واستمرت الندوة في يد أبناء عامر بن هشام بن عبدالدار حتى جاء الإسلام[٥٣].

(٤٧) أحمد الشريف؛ مكة والمدينة، ص١٠٠.

(٤٨) السيوطي؛ تاريخ الخلفاء، ج١، ص٢٤.

(٤٩) الفاسي؛ شفاء الغرام، ج٢، ص١٣٩.

(٥٠) هذه الوظائف هي: الحجابة، واللواء، والرفادة، والسقاية، والندوة. انظر: الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٤، أحمد الشريف؛ مكة والمدينة، ص٩٩ – ١٠٦.

(٥١) الطبري؛ المصدر السابق، ج٢، ص١٨٤، الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص١٠٩ – ١١٠.

(٥٢) ابن الأثير؛ الكامل، ج٢، ص١٤.

(٥٣) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص١١٠.

دار الندوة في العصر الإسلامي

بعد أن فتح الرسول ﷺ مكة المكرمة، وفشا الإسلام في سكانها أخذ الكثير من عادات الجاهلية ورسومها بالاختفاء أو التغيير، ومن ضمنها أنماط الحكم فيها، فلم تعد تحكم من قبل الملأ وأهل المشورة، وإنما عين عليها الرسول ﷺ أميراً يتبع سلطته بالمدينة المنورة التي أضحى أمر المشورة منوطاً بها فقط(٥٤). ولم يبق من الرسوم والأعراف التي أنشأها قصي سوى الحجابة والسقاية والرفادة(٥٥). وبالتالي انتهت رسوم دار الندوة وأعرافها الاجتماعية، ولم يعد لها ذكر في المصادر التاريخية. بل إن هناك روايات تاريخية تذكر بأن الرسول ﷺ أخذ مفاتيحها مع مفاتيح الكعبة من بني عبدالدار. ويبدو أنه أعادها عندما أعاد إليهم مفاتيح الكعبة(٥٦)، فبقيت في أيديهم إلى أن باعوها بعد ذلك كما سيوضح لاحقًا، بيد أن ذلك لم يحل دون أن تصبح مهملة لا دور لها في حياة المكيين خلال ما بقي من عصر النبوة، وفي عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذى جاء إلى مكة سنة (١٢هـ/٦٣٣م)، وجلس للحكم بين الناس في فناء الحرم قريباً من دار الندوة، ولم يدخلها(٥٧).

وأخذ الاهتمام بدار الندوة يعود من جديد في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أقام فيها في إحدى زياراته لمكة المكرمة يستقرب المسجد الحرام(٥٨). وبذلك وضع الأسس الأولى لوظائف دار الندوة

(٥٤) محمد ضيف الله البطاينة؛ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، عمان، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٣٢ - ٣٧، ٤٩ - ٦٣.

(٥٥) يقصد بالحجابة حمل مفاتيح الكعبة، أما السقاية والرفادة فهما توفير الماء والطعام للحجاج، وقد استمرت هذه الوظائف بعد الإسلام، فالحجابة بقيت عند بني عبدالدار، والسقاية عند آل العباس. أما الرفادة فقام بها الرسول ﷺ، وتبعه الخلفاء من بعده. الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص١١٠ - ١١٥.

(٥٦) المصدر السابق، ج١، ص١١٠ - ١١١.

(٥٧) ابن سعد؛ الطبقات، ج٣، ص١٨٧.

(٥٨) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣١١، ٣١٢، ٣٨٨.

بعد ذلك - رغم أن ذكرها ينقطع في عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما - فأصبحت مقراً لإقامة الخلفاء إذا ما قدموا إلى مكة المكرمة، وهذه هي الوظيفة التي أضحت تقوم بها منذ بداية العصر الأموي، إذ اتخذها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مقراً لإقامته بمكة المكرمة.

هذه هي الوظيفة التي أضحت تقوم بها مكة المكرمة منذ بداية العصر الأموي

ولإثبات هذه الصفة لدار الندوة قام معاوية بشرائها من ابن الرهين العبدري[٥٩] بمئة ألف درهم. وفي روايات أخرى أن الذي باعها حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي[٦٠]، أو أنه عكرمة بن عامر (وقيل: عمار) بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار[٦١]. ويبدو أن شراءها كان في سنة (٤٤هـ/٦٦٤م) عندما جاء معاوية إلى مكة المكرمة حاجاً[٦٢].

وقد عارض الشراء شيبة بن عثمان[٦٣]، طالباً شراءها بحق الشفعة؛ لأنها بجوار داره؛ فكلم معاوية في ذلك، فطلب منه معاوية إحضار المال، وواعده مساء ذلك اليوم، فلما جاء بالمال طلب منه معاوية انتظاره في المسجد الحرام، وخرج مسافراً من باب آخر لدار الندوة، دون أن يشعر به شيبة الذي ظل منتظراً حتى موعد صلاة

(٥٩) هو النضر بن الحارث بن كلدة بن عبدمناف بن عبدالدار العبدري. ابن حبيب؛ المنمق، ص٢١٠، ابن سعد؛ الطبقات، ج٢، ص٤٧٨، ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤ - ٣٥.

(٦٠) المزي؛ تهذيب الكمال، ج٧، ص١٨٥، ابن حجر؛ الإصابة، ج٢، ص١١٢.

(٦١) ابن عبدالبر؛ يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٢هـ، ج٣، ص١٠٨، وهو عكرمة بن عامر (ويقال: بن عمار) بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار القرشي. الفاسي؛ العقد الثمين، ج٦، ص١١٩.

(٦٢) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤.

(٦٣) هو شيبة بن عثمان بن طلحة بن عبدالله العبدري القرشي، حاجب الكعبة المشرفة، توفي سنة (٥٩هـ/ ٦٧٨م). الفاسي؛ العقد الثمين، ج٥، ص١٩ - ٢٢.

المغرب، فلما خرج والي مكة عبدالله بن أسيد(٦٤) من دار الندوة للصلاة، سأله شيبة عن معاوية، فأخبره بسفره؛ فأقسم شيبة ألاَّ يكلمه أبداً(٦٥).

واستمرت دار الندوة بعد معاوية بن أبي سفيان مقراً لخلفاء بني أمية ينزلونها إذا ما قدموا إلى مكة المكرمة(٦٦). أما عبدالله بن الزبير فجعلها مسكنه الدائم خلال فترة خلافته التي اتخذ فيها مكة المكرمة عاصمة لدولته. كما يشير بذلك النجم بن فهد في ثنايا حديثه عن عمارته للكعبة المشرفة سنة (٦٤هـ/ ٦٨٣م)، فذكر أنه وضع الحجر الأسود في ديباجة داخل صندوق مقفل "عنده في دار الندوة"(٦٧).

وعندما ولي العباسيون الخلافة أبقوا على رسوم دار الندوة كما كانت في العصر الأموي، وكانوا ينزلون بها كلما قدموا إلى مكة المكرمة، ففي سنة (١٤٤هـ/٧٦١م) حج بالناس الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، وأقام في دار الندوة، فكان يخرج منها في آخر الليل؛ ليطوف بالبيت، ويصلي إلى الفجر، ثم يعود إليها دون أن يعلم به أحد(٦٨). كذلك نزل بها الخليفة المهدي في حجته سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)(٦٩)، بل إنه مكث بها بضعة أشهر في سنة (١٦٦هـ/٧٨٢م) حيث قدم إلى مكة في شهر رمضان معتمراً، وأقام بدار الندوة إلى أن قضى نسك حجه في تلك السنة، ثم قفل راجعاً إلى عاصمة ملكه

(٦٤) عبدالله بن خالد بن أسيد الأموي القرشي، والي مكة المكرمة وفارس. المصدر السابق، ج٥، ص١٣٣ - ١٣٥.

(٦٥) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤ - ٣٥. العز بن فهد؛ عبدالعزيز بن عمر بن فهد الهاشمي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٦٦) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠، الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣١١.

(٦٧) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٧٠.

(٦٨) المصدر السابق، ج٢، ص١٨٠.

(٦٩) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج١، ص٤٧٥. ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

بغداد[٧٠]. واستمرت هذه الدار تستقبل الخلفاء من بعد المهدي، حيث نزل فيها الخليفة موسى الهادي، ومن بعده هارون الرشيد شطراً من خلافته لم تحدده المصادر التاريخية، ثم اشترى داراً أخرى يقيم فيها إذا قدم إلى مكة المكرمة، فهجرت على إثر ذلك دار الندوة[٧١].

وكان الخلفاء يستقبلون في دار الندوة الفقهاء والأعيان من سكان مكة المكرمة وغيرها، إذ يروي المسعودي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استقبل سعداً[٧٢] في دار الندوة[٧٣].

وعندما حج أبو جعفر المنصور حج معه الفقيه الورع محمد بن أبي ذئب[٧٤]، فكان يستدعيه المنصور إلى مجلسه في دار الندوة، ويحاوره في مسائل مختلفة[٧٥]. وعندما نزل المهدي في دار الندوة في حجته سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م) أحضر إليه عبيدالله بن عثمان الحجبي[٧٦] (مقام إبراهيم)، فسر به المهدي، وأدخل عليه أهله ليروه، ثم أعاده عبيدالله بن عثمان إلى مكانه، وأمر له المهدي بجوائز عظيمة[٧٧].

(٧٠) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١٧١.

(٧١) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

(٧٢) لم يحدد المسعودي من هو سعد هذا.

(٧٣) المسعودي؛ علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٣، ص٢٣.

(٧٤) محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة القرشي، توفي سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٤م) أو سنة (١٥٩هـ/ ٧٧٥م). البغدادي؛ الحافظ أحمد بن علي، تاريخ بغداد (أو مدينة السلام)، بيروت، ج٢، ص٢٩٦ - ٣٠٥.

(٧٥) النووي؛ محيي الدين يحيى بن شرف بن مري، تهذيب الأسماء واللغات، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص١٠٢.

(٧٦) لم ترد ترجمة له فيما اطلع عليه الباحث من مصادر ومراجع، وفي الفاسي ذكر لترجمة عبدالله بن شعيب بن شيبة الحجبي المكي، وقد ذكر له خبراً يفيد أنه تولى حجابة البيت في زمن المهدي العباس، وقد أصلح بأمر منه مقام إبراهيم؛ فلعل هناك خلطا في الأسماء في أحد المصادر التي اعتمد عليها البحث. الفاسي؛ العقد الثمين، ج٥، ص١٧٣ - ١٧٤.

(٧٧) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج١، ص٤٧٥، ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

ولا شك أن الخلفاء عندما كانوا ينزلون في دار الندوة كان يرافقهم فيها من قدم معهم من أهليهم وخاصتهم(٧٨). ولم يقتصر دور دار الندوة على أن تكون مقراً للخلفاء وأقربائهم وخاصتهم إذا قدموا إلى مكة، وإنما كانت مقراً لأمراء مكة أيضاً، ينزلون فيها خلال ولايتهم.

ففي حادثة اعتراض شيبة بن عثمان على شراء معاوية بن أبي سفيان دار الندوة، ومطالبته بالشفعة، التي سبق ذكرها، يرد فيها ما يشير إلى أن والي مكة حينئذ عبدالله بن أسيد كان يقيم في دار الندوة، حيث خرج منها لأداء الصلاة في المسجد الحرام بعد سفر معاوية بن أبي سفيان(٧٩). وكان والي مكة ابن هشام المخزومي(٨٠) يخرج منها للصلاة والطواف بالكعبة المشرفة(٨١)، مما يشير لاتخاذ الدار مقراً له أثناء ولايته مكة المكرمة، ولذلك كانت تعرف على الدوام بدار الإمارة، فلما استبدلها هارون الرشيد بدارٍ أخرى عرفت بدار الإمارة أيضاً(٨٢).

ويضعف الفاكهي الرواية التي تذكر أن جزءاً من دار الندوة حُوِّل إلى سجن عرف بسجن عارم في خلافة عبدالله بن الزبير، إذ رأى أن الرواية الصحيحة هي التي تذكر أن سجن عارم كان يقع دُبُرَ دار الندوة(٨٣).

وكما سبق ذكره، فإن هارون الرشيد استبدل دار الندوة بأخرى، هي دار بني خلف الخزاعيين. ولا تقدم المصادر تفاصيل عن حادثة الشراء هذه من حيث القيمة والتاريخ وغير ذلك.

(٧٨) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

(٧٩) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص٢٦٩ - ٢٧٠. الفاسي؛ شفاء الغرام، ج٢، ص١٦٧، ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤ - ٣٥.

(٨٠) ولي مكة أميران يعرف كلّ واحد منهما بابن هشام المخزومي في العصر الأموي، وهما الأخوان إبرهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وأخوه محمد بن هشام، ولم تحدد المصادر أيهما الذي ورد في الخبر. الفاسي؛ العقد الثمين، ج١، ص٣٨٢ - ٣٨٥، ج٣، ص٢٦٧ - ٢٧٠.

(٨١) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١٦٠.

(٨٢) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

(٨٣) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣٤١.

وقد تأثرت وظيفة دار الندوة تبعاً لهذا الاستبدال، فأضحى جزء منها يكرى للغرباء والمجاورين، واتخذ الجزء الآخر مربضاً لدواب ولاة مكة، ثم سكنها بعد ذلك عبيد ولاة مكة من السودان وغيرهم(٨٤).

ويبدو أن هذا الوضع استمر في دار الندوة حتى عهد الخليفة العباسي المأمون، حيث يذكر الفاكهي أنه أول من خرب دار الندوة(٨٥)، فلعله يرمي بذلك إلى هجرها تماماً، وتحولها إلى موضع تلقى فيه القمائم، ويتوضأ فيه الحجاج(٨٦).

نهاية دار الندوة

يتضح مما سبق أن المطاف انتهى بدار الندوة لتتحول إلى موضع يتوضأ فيه الحجاج، ومرمى للقمائم والقاذورات، بل ترتب على هذا الإهمال أن امتد الخراب إلى معظمها، وانهدمت أجزاء منها. وطال ضررها المسجد الحرام، فإذا جاء المطر سال الماء منها حتى يدخل من بابها المطل على المسجد الحرام، محملاً بما فيها من الأوساخ والقمائم؛ فيتأذى منها المسجد وجيرانه ومرتادوه من المعتمرين والحجاج(٨٧).

وفي سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) استعمل على بريد مكة رجل من أهلها وصفته المصادر بأنه ذو فطنة وحسبة، على علم بأحوال المسجد الحرام ومكة المكرمة دون أن تُعرّف به على الإطلاق. فكتب إلى عبيدالله بن سليمان(٨٨) وزير الخليفة المعتضد العباسي(٨٩) يشرح له ما آل إليه

(٨٤) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.
(٨٥) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣١١.
(٨٦) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.
(٨٧) المصدر السابق، ج٢، ص١١٠.
(٨٨) عبيدالله بن سليمان بن وهب، وزير الخليفة المعتضد، توفي سنة ثمان وثمانين ومئتين للهجرة. الكتبي؛ محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ج٢، ص٤٣٤ – ٤٣٦.
(٨٩) أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد الخليفة المعتضد، كان ذا سطوة، وشجاعة، ورأي، توفي سنة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م)، ومدة خلافته عشر سنوات. الفاسي؛ العقد الثمين، ج٣، ص٥١ – ٥٢. ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي؛ الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مكة، ص١٣٠ – ١٣٣.

حال دار الندوة، ويوصي بأن تضم للمسجد الحرام توسعة له ومرفقاً للحجاج، مبيناً أن أجر ذلك سيكون عظيماً، وأنها مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء من بعد الخليفة المهدي العباسي. كما بين أن بالحرم خراباً كثيراً يحتاج إلى إصلاح، وطلب أيضاً من أمير مكة عج بن حاج(٩٠)، ومن قاضيها محمد بن المقدومي(٩١)، أن يكتبا بمثل ما كتب به، فعرضت المكاتبات على الخليفة، فأمر بإنفاذ ذلك، وخصص ما يحتاجه من الأموال التي حملت إلى قاضي بغداد يوسف بن يعقوب(٩٢)، فأنفذ بعضها إلى مكة سفاتج(٩٣)، وأنفذ بعضها الآخر مع ابنه عبدالله عند ذهابه للحج مصطحبًا معه رجلاً من بني أسد بن خزيمة يدعى أبا الهياج عمير - وقيل عميرة - بن حيان الأسدي - لعله كان معماراً - وتصفه المصادر بأن له "أمانة ونية حسنة"، وعندما غادر عبدالله بن يوسف مكة إلى بغداد ترك مع أبي الهياج أعواناً وعمالاً، ويبدو أنه أشرف على اختيارهم دون أن تحدد المصادر هل هم من مكة أم من خارجها؟(٩٤).

(٩٠) عج بن حاج مولى الخليفة المعتضد العباسي، اختلف في مدة ولايته على مكة المكرمة، ولعلها كانت من سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) إلى سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م). الفاسي؛ العقد الثمين، ج٦، ص٥٧ - ٥٨.

(٩١) محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر المقدومي، قاضي مكة، كان على قضاء مكة سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، ولا تعرف مدة ولايته. المصدر السابق، ج١، ص٣٧٨.

(٩٢) يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الأزدي البصري، كان قاضياً عفيفاً نزيهاً، توفي سنة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م). البغدادي؛ تاريخ بغداد، ج١٤، ص٣١٠ - ٣١٢.

(٩٣) السفاتج، يقال: سفتج بالنقد؛ أي: عمل سفتجة، وهي أن يعطي آخر مالاً، ولهذا الآخر مال في بلد المعطي؛ فيوفيه إياه هناك، فيستفيد أمن الطريق، والجمع سفاتج وسفاتيج، واللفظ فارسي معرب. التنوخي؛ المحسن بن علي، الفرج بعد الشدة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١٩٦ - ١٩٨.

(٩٤) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٢. ويلحظ أن الخبر هنا ورد في كتاب الأزرقي، حاشية محمد بن نافع الخزاعي على الكتاب عن دار الندوة. انظر: مقدمة المحقق، الأزرقي، المصدر السابق، ج١، ص١٧. وقد كانت وفاة الأزرقي قبل الزيادة في سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م). انظر: محمد الحبيب الهيلة؛ التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر جمع وعرض وتعريف، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص١٥. وانظر أيضاً: الفاسي؛ شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٣، ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٥١.

وشرع هؤلاء في عمل التوسعة؛ فنظفوا المكان، وأزالوا دار الندوة، وأنشؤوا في موضعها مسجداً بأساطين، وطاقات، وأروقة مسقفة بالساج المزخرف والمذهب، ووصلت بالمسجد الكبير من خلال اثني عشر باباً، نصفها كبير وفتحاتها متسعة، والأخرى صغيرة قليلة الاتساع(٩٥). وتم الفراغ من هذه الأعمال في ثلاث سنوات(٩٦)؛ أي: في سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).

موقع دار الندوة

يذكر الكردي أن الناس اختلفوا في تحديد موضع دار الندوة، وانقسموا إلى ثلاثة آراء، وهي على النحو الآتي:

الأول: إن مكان دار الندوة، هو موضع المقام الحنفي.

الثاني: إن مكانها لا يعرف بالضبط، ولكنها كانت واقعة بين المقام الحنفي، ورواق باب الزيادة.

الثالث: إن مكانها رحبة باب الزيادة بما في ذلك الحصباء والرواق(٩٧).

اختار الكردي الرأي الثالث مستنداً على الأدلة الآتية:

أولاً: إن موضع المقام الحنفي يلاصق المطاف، وبالتالي يكون قريباً من الكعبة، فلو كانت دار الندوة في موضعه لهدمت ضمن الدور التي أدخلت في المسجد الحرام في التوسعات الأولى التي حدثت في زمن عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان أو عبدالله بن الزبير رضي الله عنهم.

ثانياً: إن المؤرخين لم يذكروا أن دار الندوة وقعت ضمن الزيادة التي حدثت للحرم الشريف في عهد الخليفة المهدي العباسي.

(٩٥) الفاسي؛ شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٣.

(٩٦) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٥٢.

(٩٧) الكردي؛ محمد بن طاهر، تحقيق أثري عن موضع دار الندوة، مجلة المنهل، المجلد العاشر، ج١١، ١٢، شهري ذي القعدة وذي الحجة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص٣٧١ - ٣٧٢.

ثالثاً: إن إدخال دار الندوة في المسجد الحرام تم على يد أمير المؤمنين المعتضد بالله العباسي سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) وعمارته تعرف بالندوة نفسها نسبة لهذه الدار، في حين أنه في عمارة المهدي السابقة لهذه العمارة لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر.

رابعاً: إن هذه الدار هي التي كانت معروفة منذ زمن قريش في الجاهلية، فلما صارت موضعاً للقمائم والقاذورات رفعت المكاتبات التي توصي بضمها للمسجد(٩٨).

ويختم الكردي أدلته قائلاً: "فلا يعقل أن يكون محل الندوة هو مكان مقام الحنفي الملتصق بالمطاف، وأن تلقى القمائم هناك عند الكعبة المشرفة، بينما موضع المقام الحنفي هو الزيادات التي أدخلت في المسجد الحرام في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، ثم اتسع المسجد الحرام، وصار على هيئة التربيع في زمن المهدي المذكور...؛ فعلم مما ذكرناه أن محل دار الندوة التي أدخلها المعتضد بالله في المسجد الحرام هو رحبة باب الزيادة بما فيه من الأروقة والحصباء، والله تعالى أعلم"(٩٩).

وموقف الكردي يماثل رأي المؤرخ حسين باسلامة في أن موقع دار الندوة رحبة باب الزيادة مع بابها بما تشمله من الأروقة والحصوة، معللاً ذلك بأنها لو كانت في موضع المقام الحنفي لأزيلت في التوسعات المبكرة، مؤكداً أن رأيه هذا قال به المؤرخون المكيون الثقات، مثل: الأزرقي، والفاكهي، والفاسي، وغيرهم(١٠٠).

وموقف المؤرخين الكريمين من نفي ما يقال من أن موقع دار الندوة هو موقع المقام الحنفي صائب يستند إلى تصور صحيح، إذ إنه يبتعد

---

(٩٨) الكردي؛ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ، ج٢، ص٨١.

(٩٩) المصدر السابق، ج٢، ص٨١ - ٨٢.

(١٠٠) باسلامة؛ حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، الطبعة الثالثة، جدة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٥٤ - ٥٥.

عن موقع الزيادة التي تمثل مؤشراً أكيداً لموقع دار الندوة. كما أن الربط بينهما يجعل مساحة الدار تمتد من المقام إلى الزيادة شاملة إياها بالكامل، وهذا تصور لا يمكن القبول به؛ إذ إن الدار في هذه الحالة تشغل مساحة كبيرة (انظر الشكل الآتي).

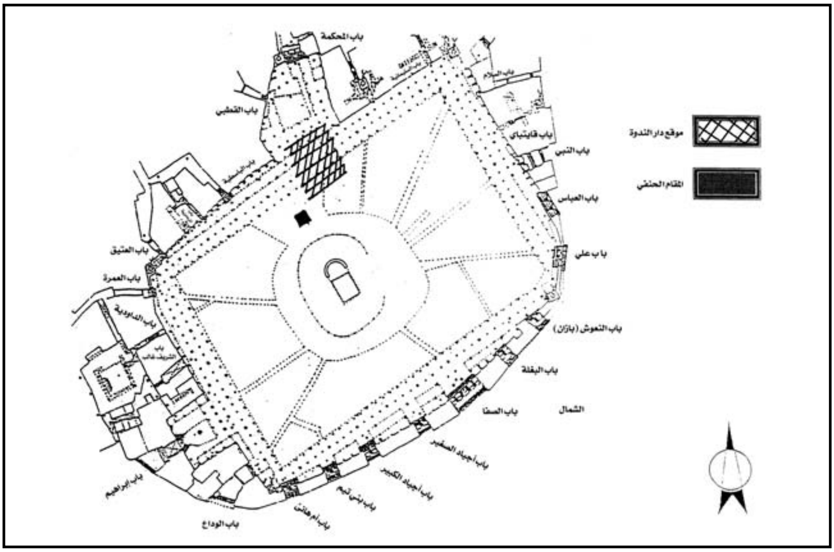

موقع دار الندوة كما يتصوره الباحث
على خريطة هيئة المساحة المصرية، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م

ومن المستبعد أن تكون العمارة المكية في العصر الجاهلي قد بلغت بها القدرة إلى بناء دار بهذه المساحة الكبيرة، كما أن الإمكانات المادية، والمستوى الحضاري لم يكن ليتيح للمكيين الوصول إلى مثل ذلك المستوى من فن المعمار ومن فنون البناء. ولذلك كانت مبانيهم على الإجمال بسيطة ومتواضعة(١٠١). أما بالنسبة لرأييهما من أن دار الندوة كان موضعها حيث زيادة الندوة، ففيه نظر، ولا يمكن قبوله للأسباب الآتية:

(١٠١) عن عمارة المسكن المكي انظر: جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص ٢٢.

أولاً: إن المصادر التاريخية تذكر صراحة أنه ترتب على توسعة أبي جعفر المنصور للمسجد الحرام سنة (١٣٧هـ/ ٧٥٤م) ضم معظم دار الندوة إليها(١٠٢). وهذا خلاف الرأي القائل بأنه لم يدخل منها شيء.

ثانياً: يتفق كل من الأزرقي والفاكهي على أن باب دار الندوة الأصلي كان يقع في وسط صحن المسجد الحرام، وتحديداً في منتصف المسافة الواقعة بين المطاف والرواق(١٠٣). ومقصدهما هنا واقع المسجد الحرام بعد عمارة الخليفة المهدي العباسي سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)، والتي اتخذ فيها المسجد شكلاً يميل إلى التربيع(١٠٤). إذ لم تطل بهما الحياة إلى زمن التوسعة التي ضُمّت فيها دار الندوة للمسجد الحرام سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) حيث كانت وفاة الأزرقي سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، أمّا الفاكهي فلم تتجاوز حياته نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(١٠٥). ولا تتوافر عنه معطيات تؤكد أنه شهد هذه الزيادة.

ثالثاً: عندما يتحدث الأزرقي عن دار الندوة في عصره، فإنه يقول عنها: "وقد بقيت منها بقية قائمة إلى اليوم على حالها"(١٠٦).

(١٠٢) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٧٢ - ٧٣، ٢٥٣. الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٤. ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص١٧١ - ١٧٢. ويرد في حاشية محمد بن نافع الخزاعي على الأزرقي، أنه اقتطع أجزاء من دار الندوة في الزيادة التي شهدها الحرم قبل زيادة أبي جعفر المنصور. انظر: الأزرقي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٩، وهذا يتعارض مع ما ورد عند الأزرقي أو الفاكهي وغيرهما من المصادر المعتمدة التي لم تشر إلى ذلك على الإطلاق، بل إنه يرد في هذه الحاشية أن هناك زيادة في الحرم قام بها سليمان بن عبدالملك، وهو لم يرد أيضاً في هذه المصادر أو غيرها. انظر: الأزرقي، المصدر السابق، ج٢، ص٧١ - ٧٢. الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١٦١ - ١٦٢. فوزية حسين مطر؛ تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، الطبعة الأولى، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٩٨ - ١٢٧.

(١٠٣) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٧٠ - ٧١، الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١٦٠.

(١٠٤) وللمزيد عن التوسعات العباسية للمسجد الحرام. انظر: فوزية مطر؛ تاريخ عمارة الحرم المكي، ص١٣٠ - ١٥٩.

(١٠٥) الحبيب الهيلة؛ التاريخ والمؤرخون، ص١٥، ٢١.

(١٠٦) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٥.

ومن الواضح أن الأزرقي يرمي بذلك إلى أن أجزاء من كتلة المبنى القديم ظلت باقية حتى عصره، وليس المقصود به كتلة المبنى الذي يشغل جميع مساحة الزيادة؛ لأنها تبلغ في أقصى اتساع لها (٣٧,١٠م × ٣٦,١٠م)(١٠٧)، وهذه مساحة كبيرة لا يحتمل أن تكون هي البقية القائمة التي يذكرها الأزرقي، وإنما تشمل إضافات وتوسعات شهدتها الدار في عهود مختلفة من العصر الإسلامي، كما هو موضح في ثنايا الحديث عن عمارتها في هذه الدراسة.

رابعاً: بالنسبة لما يذكره حسين باسلامة من إجماع المؤرخين على أن موقع دار الندوة هو الزيادة، فإن هذا لا يتفق مع ما ورد عند البعض منهم حول ذلك، فالأزرقي يذكر أنه بقيت منها أجزاء في عصره. كما أنه والفاكهي يتفقان على أن أجزاء كبيرة منها ضمت في توسعة المنصور كما سبق ذكره، في حين أن الفاسي يذكر أن ضم الدار للمسجد الحرام تم على مراحل(١٠٨). ويعد النهرواني (النهروالي) والسنجاري أن هذه الدار كانت تمتد فيما بين المقام الحنفي والزيادة شاملة كلاً منهما(١٠٩).

يتضح مما سبق أن معظم دار الندوة ضم للمسجد الحرام في توسعة المنصور، وقد بقيت منها أجزاء تشكل قسماً من الزيادة، ومن المؤكد أنه القسم الجنوبي منها، وبالتالي كانت بقية كتلة المبنى تمتد جنوباً متجاوزة رواق الحرم وصولاً إلى منتصف المسافة بين الرواق والمطاف؛ حيث يوجد بابها الأصلي كما سبق أن ذكر، فهذا هو موقع دار الندوة الحقيقي. (انظر الشكل السابق).

---

(١٠٧) باسلامة؛ تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٤٦.

(١٠٨) الفاسي؛ شفاء الغرام، ج١، ص٣٥ - ٣٦.

(١٠٩) النهرواني (النهروالي)؛ محمد بن أحمد بن محمد النهرواني، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق، هشام عبدالعزيز عطا، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٩. السنجاري؛ منائح الكرم، ج٢، ص١٨٢. وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضاً أحمد السباعي؛ تاريخ مكة، ج١، ص١٨٦.

عمارة دار الندوة

لا تتوافر في المصادر التاريخية أي نصوص عن عمارة دار الندوة قبل الإسلام. وإن كان من المؤكد أنه كانت تتبعها ساحة كبيرة تربض فيها دواب القوافل التجارية، والأرجح أنها كانت تقع خلفها بعيداً عن الكعبة، حرمة وتقديراً لها. أما تخطيط المبنى فالراجح أنه لا يخرج في ذلك عن الأسلوب المتبع في العمارة المكية، حيث كانت البيوت تتكون من حجرات عدة، ولها بابان متقابلان، أحدهما للداخل والآخر للخارج(١١٠).

وتذكر عواطف سلامة أن مساحة هذه الدار كانت تبلغ (٧٠ × ٧٤) ذراعاً مربعاً تقريباً(١١١)، على أساس أنها أبعاد زيادة الندوة كما يذكرها حسين باسلامة(١١٢). وقد سبق أن تبين أن موقع دار الندوة ليس في الزيادة؛ ولذلك لا يصح اعتماد هذه الأبعاد. كما أن المعطيات المتوافرة لا تمكن من تقديم تصور - ولو تقريبي - عن أبعادها رغم إمكانية تحديد موقعها.

يبدو أن هذه الدار شهدت بعض الإصلاحات، وربما بعض الإضافات في العصر الجاهلي، كما هي طبيعة حال المباني التي تستخدم لفترات طويلة من الزمن، فعند ظهور الإسلام كان قد مضى على إنشائها مئة وخمسون عاماً تقريباً.

أما في العصر الإسلامي فإن المصادر توفر مؤشرات يسيرة حول عمارة هذه الدار يعود أولها إلى عصر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حيث تذكر النصوص التاريخية أنه عمَّرها بعد أن اشتراها(١١٣)، ويظهر أن المقصود بذلك ترميمها، وإجراء بعض الإضافات والتعديلات المناسبة لوظيفتها الجديدة.

(١١٠) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٥٢.

(١١١) عواطف سلامة؛ قريش، ص٨١.

(١١٢) حسين باسلامة؛ تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٦٢٧.

(١١٣) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

ومن المؤكد أن دار الندوة قد شهدت تعديلات مهمة ورئيسة في العصر العباسي، خاصة بعد توسعة أبي جعفر المنصور، والتي ترتب عليها ضم معظمها للمسجد الحرام، بحيث يتم تعويض الأجزاء المفقودة بأجزاء أخرى، فجرى التوسع شمالاً فيما عرف بعد ذلك بزيادة دار الندوة، ولعل هذا التوسع تم في الساحة التي كانت مربض قوافل التجارة. فأضيفت للمتبقي من المبنى القديم وحدات ومرافق مختلفة جعلته يماثل القصور في عمارته، فأصبح له فناء واسع يتوسطه(١١٤)، وزود بمقاصير - حجرات تبنى في القصور -(١١٥) للرجال وأخرى للنساء(١١٦)؛ مما يدل على تحوله إلى قصر منيف يحتوي على القاعات والحجرات بالإضافة إلى المرافق المختلفة التي كانت تحتاجها القصور في ذلك العصر.

نتائج الدراسة

توصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج:

أولاً: التعرف على أصل اسم (دار الندوة)، وأنها هي مسكن قصي بن كلاب، وهي أول دار تبنى في بطاح مكة.

ثانياً: رغم كون هذه الدار مسكناً لقصي بن كلاب، فقد وظِّفت لأمور تتعلق بإدارة شؤون مكة المكرمة وقبيلة قريش، وارتبطت هذه الوظائف برسوم معينة كان القرشيون يتمسكون بها ويحافظون عليها.

ثالثاً: بعد دخول الإسلام إلى مكة المكرمة، وانتشاره بين سكانها، وخضوع مكة لإدارة الدولة الإسلامية اختفت وظائف دار الندوة التي كانت تمارس فيها في العصر الجاهلي.

---

(١١٤) النهرواني؛ الإعلام، ص١٧٩.

(١١٥) عبدالرحيم غالب؛ موسوعة العمارة الإسلامية، عربي، فرنسي، إنجليزي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٤٠٤.

(١١٦) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

رابعاً: أضحى لدار الندوة في العصر الإسلامي وظائف جديدة تقوم بها، حيث اتخذها الخلفاء مقراً لإقامتهم إذا قدموا إلى مكة المكرمة. كما أنها اتخذت مقراً لسكنى أمير مكة المكرمة، وكانت تعرف بدار الإمارة.

خامساً: تحديد موقع دار الندوة المختلف فيه، حيث كانت تشمل الجزء الجنوبي من الزيادة، وتمتد حتى تصل إلى منتصف المسافة بين الرواق والمطاف.

سادساً: أمكن من خلال هذه الدراسة التعرف على ملامح عامة عن عمارة دار الندوة، وما طرأ عليها من تطورات معمارية عبر العصور المختلفة.